

القباب بالمنشآت الدينية الإسلامية خلال الفترة الوسيطة: قبة الجامع الكبير بتلمسان

دراسة حالة

The Domes in Islamic Religious Buildings during the Medieval Period: A Case Study of the Great Mosque Dome in Tlemcen

خشب نوال

مجاهدي إبراهيم*

مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، معهد الآثار - الجزائر

مخبر التراث الأثري وتثمينه، جامعة تلمسان - الجزائر

awalmarwa@gmail.com

brahim.medjahdi@univ-tlemcen.dz

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2025/07/31	2025/07/19	2025/04/01

الملخص:

لقد كان للجامع الكبير مكانة هامة للسكان في حاضرة تلمسان، وخاصة قبته، ويرجع ذلك لما تمثله هذه الأخيرة من ذوق في وزخرفي ومعماري بارز، حيث تعتبر بصدق أحد العناصر التي أبدع فيها المهندس المعماري المسلم بتلمسان خلال العصر المرابطي، وأظهرت مدى إتقانه ومهارته في البناء والإنجاز المتميز بالإبداع الفني الذي ينم عن تفوق هذا المهندس في سعة الخيال، والجمع بين الجانب الروحي الديني والمادي، وعن روعة الفن العربي الإسلامي بحضارة تلمسان وما كان عليه المرابطون من ذوق رفيع وإتقان للحرف والصنائع، فهي تعكس بذلك القيمة الحياتية الدينية والثقافية والاجتماعية والمعمارية والفنية السائدة حينها.

الكلمات المفتاحية: المنشآت الدينية؛ القباب؛ الجامع الكبير؛ تلمسان.

Abstract:

The Great Mosque held significant importance for the residents of Tlemcen, especially its dome, due to what the latter represents in terms of prominent artistic, decorative, and architectural taste. It is truly considered one of the elements in which the Muslim architect in Tlemcen excelled during the Almoravid period, showcasing his mastery and skill in

* المؤلف المرسل

construction and execution, blended with artistic creativity that reflects this architect's remarkable imagination. It harmoniously combines the spiritual and religious aspects with the material, highlighting the splendor of Arab-Islamic art in Tlemcen and the refined taste and craftsmanship of the Almoravids. Thus, it reflects the prevailing religious, cultural, social, architectural, and artistic values of that time.

Keywords : religious buildings; domes; Great Mosque; Tlemcen

مقدمة:

لقد عاشت تلمسان عصرها الذهبي في ظل الثقافة العربية الإسلامية فكانت مركزا للإشعاع الحضاري ومدينة زاخرة بالفكر والعمران، ويتضح كلّ هذا في جوانب عديدة من العمران والعمارة ولعل في مقدّماتها المساجد وعناصرها المعمارية، فقد كانت هذه الأخيرة نتاج عدّة دويلات حظيت من خلالها تلمسان وعبر مسيرتها الحضارية بعدد كبير من المنشآت الدينية تفاعلت مع غيرها استنادا إلى الثنائية "التأثير/التأثر"، ولا شكّ في أنّ الفنّ المغربي الأندلسي تطور بشكل كبير في العصر المرابطي فلقد اهتم المرابطون بمجال الزخرفة وبالمواضيع الفنية كما يتضح في جامع تلمسان الكبير خاصة بقبته المخرومة.

إنّ تفاني أنامل المهندس المعماري العربي المسلم عبر فترات تاريخية سابقة خلّدت بصماته من خلال هذه المآثر المعمارية المتمثلة في العمارة الدينية التي أدّت وظيفتها لممارسة الشعائر الدينية بالإضافة إلى وظائف أخرى متعددة، فزاد من جمال هذه البنايات الأجزاء والأشكال الهندسية المتمثلة في المنارات والأعمدة والأقواس والقباب وتحفا أخرى شكلت هذا البناء المتكامل، وما أردنا أن نقف عليه من خلال بحثنا هذا هو دراسة جزء من العناصر المعمارية للمنشآت الدينية المرابطية بمدينة تلمسان ممثلة في القبة المخرومة بالجامع الكبير، والتي تعتبر بصدق أحد أهم العناصر المعمارية التي أظهر فيها المهندس المعماري المسلم بتلمسان خلال العصر المرابطي مدى إتقانه ومهارته في البناء الممتزج مع الإبداع الفني الذي ينمّ عن

تفوق هذا المهندس في سعة الخيال والجمع ما بين الجانب الفني الزخرفي والجانب المعماري التقني.

ومن هذا المنطلق تولّد لنا اهتمام بموضوع القبة المخرومة بالجامع الأعظم المرابطي بتلمسان من خلال دراستها أثريا ومعماريا وفنيا وفقا للإشكالية الرئيسية هي:

ماهي المميزات والخصائص المعمارية التقنية والفنية الزخرفية للقبة المخرومة بالجامع الكبير المرابطي بتلمسان؟

1. الجامع الكبير بتلمسان: الموقع والتأسيس

يتوسط الجامع الكبير المرابطي مركز المدينة المرابطية تاغرارت أحد الأجزاء الثلاثة المكونة لمدينة تلمسان الإسلامية، ويعتبر هذا الجامع من المساجد القليلة الباقية من العهد المرابطي بالجزائر رفقة مسجدي ندرومة والعاصمة.

1.1. موقع المسجد من المدينة: ترتفع مدينة تلمسان على سطح البحر بحوالي 2600 قدم أي ما يقارب 380م وتحيط بها الجبال من الغرب والجنوب والتي تعتبر بمثابة حصون قوية تحميها من الغزاة، وهي من الصخور المسامية التي تتمكن من تخزين كميات هائلة من المياه وإخراجها على شكل ينابيع وأنهار¹، وصفها يحيى بن خلدون في بغية الرواد بقوله: "مدينة عريقة في التمدن، لدنه الهواء، عذبة الماء، كريمة المنبت اقتعدت بسفح جبل ورنيد عروسا فوق منحة، والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين تطل على فحص للفلج"².

وفي مركز هذه المدينة العتيقة يقع الجامع الكبير الذي أسس في عهد الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين فهو يعدّ جوهرة الجزائر الساطعة من الغرب، وهو الأمر الذي جعله محل اهتمام المختصين والمؤرخين أمثال بارجس وجورج مارسى وغيرهم، ويعتبر الجامع أحد

المعالم المرابطية الشاهدة على أصالة المدينة ودورها الرائد من القدم في خدمة الإسلام والمحافظة على هوية الأمة ويعتبر مثالا على استمرارية العمارة الدينية وتطويرها.

2.1. تأسيس الجامع الكبير بتلمسان وتطوره: أثار تاريخ الجامع الكبير جدلا كبيرا

بين الباحثين بسبب الغموض الذي يكتنف تاريخ بعض عناصره المعمارية وعدم وجود كتابات تأسيسية يمكننا الاستناد إليها لتحديد السنة أو الفترة التي أنشئ فيها الجامع، وليس هذا بغريب في المساجد المرابطية بالمغرب الأوسط، فقد أدى اقتصار النقوش الكتابية على بعض العناصر الملحقة بالمساجد في فترات مختلفة من تاريخها، مثل منبري جامعي ندرومة* والجزائر، حيث أننا لم نستطع تحديد تاريخ إنشاء كل من الجامعين على وجه الدقة³، ومما يزيد الأمور تعقيدا في الاعتماد عليها بصفة قطعية في تأريخ المسجد ويجعل الأمر نسبيا غير موثوق بصحته على خلاف مساجد إفريقية (تونس) التي تحتفظ بتاريخ كل زيادة ألحق بها، وبكل تحديد تعرضت له بفضل النقوش الكتابية التي سجلت تاريخ إنشاء كل إضافة أو عمل معماري أو زخرفي أجري على هذا المبنى⁴.

كما أدى نقص النقوش الكتابية التي تشير إلى كل زيادة أو تحديد يلحق بالجامع الكبير بتلمسان إلى تناقض الآراء حول تاريخ بنائه والسنوات التي تم فيها تحديد الجامع أو اصلاحه أو تعميره⁵، ففي الوقت الذي أكد فيه معظم الباحثين على أن هذا الجامع يرجع تاريخ بنائه إلى عهد علي بن أبي تاشفين** استنادا إلى التاريخ الذي ورد ذكره في النقش التأسيسي الذي يحيط ب⁶ رقبة قبة المحراب بالجامع، نلاحظ أن اسم المؤسس لهذا الجامع أزيل من النقش على أيدي الموحدين بعد استلائهم على تلمسان⁷.

الصورة رقم 01: منظر عام للجامع الكبير بتلمسان.



المصدر: من تصوير الباحثين

يقع الجامع الكبير ضمن المكان القديم المسمى "تاغرارت" إذ يعتبر من أجمل الآثار المرابطية الباقية حتى اليوم، ولكي نرسم صورة صحيحة هن تاريخ ومراحل بنائه وأسلوب زخارف لا بأس من الإشارة إلى الحقائق التاريخية التالية:

- توجد كتابة محفورة تدور بقاعدة قبة المحراب تؤكد أن إتمام البناء كان في جمادى الثانية عام 530هـ / 1135م.

- هناك نقش كتابي آخر منحوت على باب المقصورة يشير إلى هذا العمل بتاريخ 533هـ/1138م.

القباب بالمنشآت الدينية الإسلامية خلال الفترة الوسيطة: قبة الجامع الكبير بتلمسان

- ذكر ابن أبي زرع في معرض حديثه عن أعمال عبد المؤمن أنه بنى عام 540هـ/1145م، أسوارا لقرية تاغرارت بالقرب من مدينة تلمسان وكذا المسجد وجدران المدينة أي تلمسان⁸.

- في رحلة عبور محمد بن عبد الله التبسي أكد بأن الأمير يغمراسن بن زيان قد أقام مئذنة للمسجد الكبير بتلمسان.

- وجد نقش كتابي محفور على لوحة خشبية موضوعة في حائط المحراب يشير إلى أنّ أبا حمو الثاني بنى مكتبة ملاصقة للجامع.

انطلاقا من هذه المعطيات التاريخية يمكننا تحديد بناء هذا المسجد في فترة حكم المرابطين.⁹

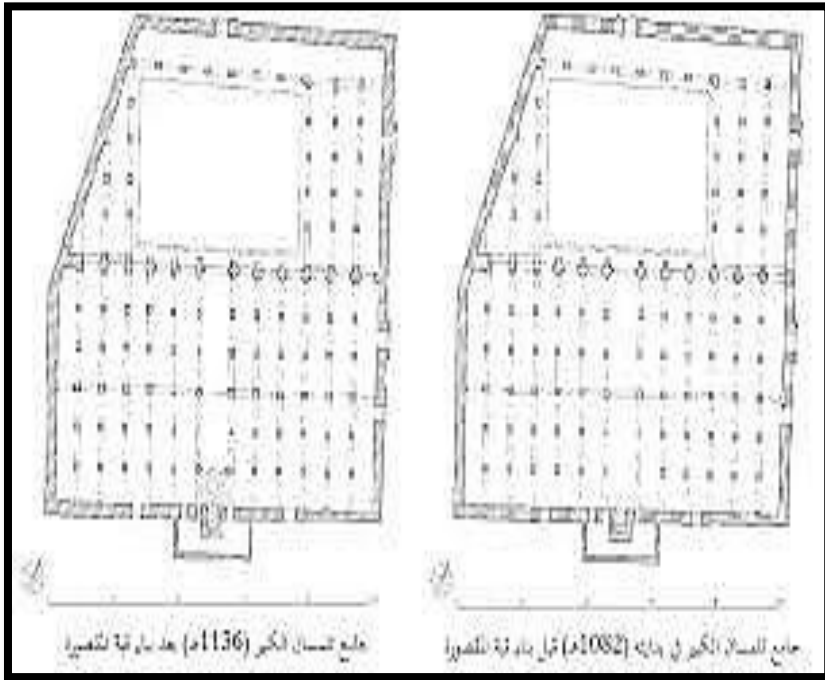
خلال العهد المرابطي وأثناء حصار يوسف بن تاشفين لتلمسان القديمة-أغادير- بنى مدينة جديدة تاغرارت تلمسان الحديثة ومعناها المحلة في لغة القوم، فأصبحت المركز الرسمي للحكومة المرابطية حيث نزل بها القواد والجنود والأعيان كل ذلك ساهم في تشييد دار الإمارة والمسجد الجامع بها كما هو الشأن عند أحداث المدن الجديدة، فبنى وقتها يوسف قصر تلمسان القديم الذي كان موقعه غرب الجامع الكبير.¹⁰

ظلت تلمسان وغيرها من مدن الجزائر خاضعة لحكم المرابطين فترة طويلة من الوقت ازدهرت فيها العمارة والفنون الإسلامية كما انشأت المساجد والقصور والقلاع، ولا سيما في عهد الأمير يوسف بن تاشفين الذي أولى اهتماما كبيرا بإقامة المساجد¹¹، وهذا ما يؤكد النص الآتي: "فلما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس حصنها وأتقنها وأمر بهدم الأسوار التي كانت بها فاصلة بين المدينتين عدوة القرويين وعدوة الأندلس

وردهما مصرا واحدا، وأمر ببناء المساجد في أزقتها وشوارعها وأي زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب أهله وجهزم على بناء مسجد فيه، وبناء الحمامات والفنادق.¹²

لقد خصص جورج مارسيه العديد من المقالات عن هذا المسجد، إذ لاحظ وجود ثلاث مراحل مر بها هذا الأثر تمثلت المرحلة الأولى بداية من بناء الجامع أيام يوسف بن تاشفين في 475هـ / 1082م، قبل تأتي المرحلة الثانية انطلاقا من سنة 530هـ / 1135م وهذا عندما زين علي بن يوسف المسجد بالزخارف الرائعة التي يزدان بها وجه المحراب، وكذا البلاطة الوسطى والقبعة التي أمام المحراب، بينما تمثلت آخر مرحلة في فترة حكم الأمير يغمراسن سنة 1235م / 1282م، حيث أضاف إلى الجامع الكبير القسم الشمالي من بيت الصلاة مع القبعة والمئذنة.¹³

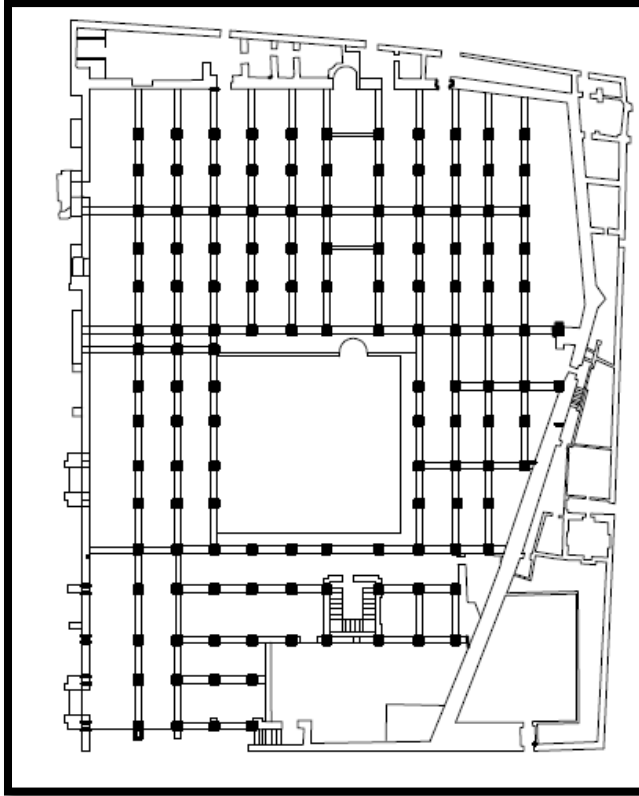
الشكل رقم 01: مخطط الجامع الكبير سنة 1082 و 1136هـ



المصدر: مكتب الدراسات التقنية لتلمسان OGBC

لكن ومع ذلك إلا أنه هناك بعض الأدلة التي اعتمدها بعض الأثرين عكس ما ذهب إليه جورج مارسيه، فهذا رشيد بورويبة يعتقد أن يوسف بن تاشفين عند دخوله مدينة تلمسان وجد بها مسجد أغادير الذي أسسه إدريس الأول سنة 172هـ/788م، وهذا ما جعله يغض الطرف عن بناء مسجد جامع للمدينة الجديدة تاغرارت* التي بناها بالقرب من مدينة أغادير القديمة اكتفاء بالمسجد القائم بها، كل ذلك يكون قد دفع بالمؤرخين إلى عدم التطرق بالحديث إلى هذه النقطة في مؤلفاتهم.

الشكل رقم 02: المخطط العام للجامع الكبير.



المصدر: مكتب الدراسات التقنية لتلمسان OGBC -بتصرف من الباحثين-

3. القبة: مفهومها ونشأتها وتطورها

تعتبر القبة أحد العناصر المعمارية المهمة التي اهتم بها البنّاءون منذ الفترات الأولى للظهور هندسة البناء، وقد تطورت بشكل رهيب خلال الفترة الإسلامية.

3.1. التعريف اللغوي والاصطلاحي للقبة: يأتي التعريف اللغوي لها فيقال القَبَّة

وَالْقَبَّةُ وَالْقَبَّةُ، والقَبْ مَصْدَرُ قَب، والقبة بناء مستدير مجوف وخيمة صغيرة أعلاها مستدير والجمع قباب وقبب.¹⁴

أما اصطلاحاً فهي نوع من الأقبية التي تستخدم للتسقيف وهي أبسط أشكالها عبارة عن نصف كرة مجوفة تقف على أعمدة أو جدران، مصنوعة من مواد مختلفة وتعتبر القبة عنصراً من عناصر العمارة الإسلامية، كما تستعمل كلمة قبة للدلالة على بناية جنائزية مربعة ومغطاة بقبة.

ويمكن اعتبارها قوس متكرر وملتف حول وسطة فالقبة لها القدرة على تحمل الأحمال الإنشائية ويمكن مدها على مساحة واسعة.¹⁵

3.2. لمحة تاريخية عن نشأة القباب: لقد طور الرومان القباب الحجرية في أفضل

صورها وظهر أوج ذلك التطور في معبد البانثيون الذي بناه الإمبراطور "حاد ريان" بين عامي 118 و128 ميلادية، حيث تركزت القبة على أسطوانة دائرية ضخمة ، واستمر استخدام القباب في العصر النصراني المبكر في المباني المعمارية الدائرية والصغيرة نسبياً مثل الأضرحة والبيوت العمودية حيث يعتمد ذلك النصارى ، وهناك نموذج حي على ذلك وهو كنيسة "كوستانزا" التي يرجع تاريخها إلى 350 ميلادي بروما، ولقد تميز المعماريون البيزنطيون بروح الابتكار العالية في استخدام القباب ففي العاصمة البيزنطية القسطنطينية

بنيت سلسلة من الكنائس المقبة وقد بلغ أوج ذروتها في كنيسة " آيا صوفيا " التي بنيت عامي 532-537 ميلادية.¹⁶

3.3. أنواع القباب: استخدمت القباب في القديم كسقف للأكواخ الدائرية المبنية

بالطوب اللبن في منطقة الجزيرة وفي بلاد الرافدين منذ حوالي ستة آلاف عام مضى، وفي القرن الرابع عشر قبل الميلاد. بنى اليونانيون مقابر مسقفة بقباب منحدرية على شكل مدبب.¹⁷

والقباب هي إحدى العناصر المستخدمة بالمساجد والأضرحة الإسلامية، كما أنها تزين من الداخل والخارج بزخارف (نباتية، خطية، هندسية، كتابية أو مختلطة)، وتتنوع أشكال القباب باختلاف الطرز الإسلامية، إلا أنها من حيث الشكل نجد نوعين:

- **القبة الكروية:** عبارة عن نصف كرة في كافة اتجاهاتها وهي بناء دائري محدب من الخارج ومقعر من الداخل ومنها ما هو مرتفع أو منخفض أو متجاوز.

- **القبة المدببة:** وهي نصف كرة متطاولة أي بيضوية أو مجموعة أضلاع هرمية متصلة ينتهي رأسها أو قمتها بنقطة أو منحني صغير، ومنها المرتفعة أو المنخفضة أو المتجاوزة، وقد شاع بناء هذه القبة المدببة في العهد الأيوبي وما تلاه من العهود.¹⁸

وقد تطورت القباب وأصبحت أكثر تعقيدا لارتباطها بجنانين، وظيفي وتزيني في وقت واحد، وأضيفت إليها مسطحات مقعرة تمثل المحاولة الأولى في زخرفتها بالمقرنصات.¹⁹

أمّا خلال العصور الإسلامية فقد ارتبطت القباب بالمساجد، ويرجع سبب هذا الارتباط القبة إلى أنها تمثلها الفضاء الربح والسماء الواسعة التي توحى بالمعاني الروحية، وكذلك لمساعدتها على اشاعة الهواء في المساجد التي تخلو من النوافذ، كما أن شكلها المقوس الأجوف يساعد على تجميع الأصوات أثناء الصلاة.

أما عن أنواع القباب من حيث مظهرها الزخرفي فلقد برع الفنان المسلم في التفنن والاعتناء الخارجي للعناصر الإسلامية، فتنوعت بذلك القباب فنجد:

- **القبة المخرمة:** هي القبة التي بها ثقب وانشقاقات داخل الزخارف لوظيفتها الجمالية واضفاء النور من خلالها والتهوية²⁰.

- **القبة الملساء:** هي أبسط أنواع القباب في دمشق سطحها أملس خال من الزخارف والكتابات.

- **القبة المحززة:** تتميز هذه القبة بزخرفتها بالخطوط الطويلة التي تقطعها من قاعدتها إلى قمته حيث تتلاقى بنقطة أو بمنحنى صغير.

- **القبة المزخرفة:** تشمل كل قبة يزخرف سطحها النقش، الرصف*، الطلاء، القشاني**، أو بالنصوص الخطية.

- **القبة المقرنصة:** على شكل مقرنصات هرمية مقلوبة أو مختلطة²¹.

4.3. نماذج للقباب: إنّ تاريخ أول قبة مسجد في الإسلام هي قبة الصخرة الشريفة

التي تعتلي المسجد الذي سمي باسمها والموجود في ساحة الأقصى²²، فقد ذكر اليعقوبي أن الخليفة الأموي عبد الملك هو من أمر ببناء مسجد قبة الصخرة سنة 72هـ/681م²³.

فقد قرر الخليفة الأموي عبد الملك أن يبني قبة رغبة منه أن تضاهي قبة مسجد القيامة التي يحج إليها النصارى، وقد خشى أن تؤثر ضخامة هذه الكنيسة في قلوب المسلمين فاعتزم أن يبني قبة مثلها وأحسن منها فنصب على الصخرة قبة وبالغ في حجمها وزخارفها.²⁴

تقع القبة على الحجرة المقدسة التي يقال أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عرج به منها، وهي كتلة غير منتظمة من الصخر الطبيعي، ويبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب 17م-70م وعرضها من الشرق إلى الغرب 13.50م أما ارتفاعها عن الأرض 15م، والقبة تقوم على أربع دعام كبيرة ملبسة بالرخام الأبيض وهذه الأعمدة والدعائم مرتبة في تكوين دائري كاف للإحاطة بالصخرة ويقع بين كل دعامة وأخرى ثلاثة أعمدة، ويعلو القبة رقبة أسطوانية تحتوي هذه القبة على 16 نافذة تسمح بدخول النور. مقاسات قبة الصخرة 36 قدما طولا و42 قدما عرضا.²⁵

ومن القباب الإسلامية الشهيرة يمكن أن نذكر قبة المسجد النبوي -الروضة الشريفة- في زمن قلاوون الصالحى عام 678هـ/1279م، وقبة تاج محل بالهند التي بناها الحاكم المغولي شاه جهان كضريح لزوجته، وقبة النسر التي تعلوا الجامع الأموي بدمشق أين يرجع تاريخ بنائها إلى 67هـ//687م وغيرها من القباب الحديثة النشأة والتطور.²⁶

5.3. تقنية بناء القباب: القبة عبارة عن إنشاءات هندسية معمارية مقوسة الشكل تستخدم في تغطية المساحات الدائرية أو المربعة، حيث يتم الانتقال من المربع إلى الدائرة عن طريق أكتاف وبروزات موجودة بزواياها، وفي حالة كون القاعدة التي تتركز عليها القبة الدائرية تنتقل الأحمال ومباشرة إلى القاعدة، وإذا كانت القاعدة مربعة فيجب أن تنشر الأحمال باستخدام وسائل إنشائية مثل المقرنصات.

إنّ من إيجابيات القباب ارتفاعها وسعة الفضاء الداخلي مع تضليل جزء منها في معظم أوقات النهار المشمسة، بينما الجزء الآخر من القبة يمتص أشعة الشمس، وبذلك ينتقل الهواء الساخن في الفضاء الداخلي إلى الفضاء الخارجي المضلل والبارد نسبيا، وللقباب أشكالا مختلفة مبنية من الحجر والطين والآجر والجبس ومواد أخرى.

بعد تطرقنا لهذا فإننا ندرك أن تقنية البناء لها علاقة وطيدة مع مواد البناء، وهذه الأخيرة هي من تحدد للمعماري التقنية التي يتبعها في بناءاته العمرانية أو الإنشائية، ومن خلال هذه الدراسة يتسنى لنا معرفة الأضرار اللاحقة بالعناصر المعمارية أولاً والإنشائية الفنية ثانياً، وبالتالي يسهل علينا تحديد التلف وطريقة المعالجة، وحماية العناصر الزخرفية الجصية التي تحمل هذه العناصر المعمارية.²⁷

4. القبة المخرمة في الجامع الكبير المرابطي بتلمسان

يأتي التخريم من مصدر خرم الشيء أي ثقبه وشقه، ونقول خرم البطاقات وثقبها، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يضحى بالمخرمة²⁸. تقع القبة المخرمة الكبرى المسماة بقبة الضوء في تقاطع البلاطة الوسطى مع الأسكوب الخامس، ويعود الفضل في بنائها إلى الأمير علي بن يوسف بن تاشفين (530هـ/1136م) حسبما يشير إليه الشريط الكتابي الذي يحيط بقاعدتها، ويمكن القول بأن اتساع المكان للبلاطة مكّن المرابطين من بناء قبة المحراب ذات التخاريم الجصية الدقيقة التي ينفذ منها الضوء لتنوير بيت الصلاة، أما من الخارج فإن القبة تقع في اتجاه القبلة، في حين ومن الداخل فقد تفتّن المهندس وأنامل البناء الأندلسي في زخرفة وجمالية القبة كجوهرة متألّفة في النهار والليل على السواء.

كما تعتبر هذه القبة هي الوحيدة في المغرب الأوسط من هذا النمط التي وصلتنا من عهد المرابطين كما أنها أول قبة أقيمت في المغرب الإسلامي على غرار جامع قرطبة، قبة مضلعة ذات أسلوب ونمط بنائي مع شيء من التطوير في بعض العناصر المعمارية كالضلوع وإدخال بعض العناصر الأخرى في البناء كالحنايا الركنية والمقرنصات، وتنكئ هذه القبة على جدار المحراب من جهة القبلة، أما الجهات الثلاث الأخرى فتقوم على

القباب بالمنشآت الدينية الإسلامية خلال الفترة الوسيطة: قبة الجامع الكبير بتمسان

العقود التي تعترض أسكوب المحراب تتركز على عقدتين متقابلين حدوين أمّا المقابل لجدار المحراب فهو عقد مفصص.

انتقلت هذه القبة من الشكل المربع الى الشكل الدائري عن طريق التجويفات الركنية التي تزينها المقرنصات وينطلق من أعلى الرقبة اثنتي عشر ضلعاً رفيعاً مبنيًا من الآجر تمر بأعلى القبة تتقاطع في عدة نقاط مع بعضها البعض كما تترك هذه الضلوع بينها مساحات محرمة تحكي تقنية وجدية المهندس والبناء الأندلسيين تشغلها زخارف جصية تشبه تشبيكات النوافذ، تتمثل في مزيج بين الزخارف النباتية والمراوح النخيلية ويحيط بقاعدة القبة شريط من الكتابة.

هذه الكتابة هي بالخط الكوفي ويوحى إلى ذلك الأسلوب الأندلسي الجميل الأنيق، وأنت تتطلع إلى هذه القبة المخرمة تنبهر بتقنية ودقة وجماليات كما انسجام وتوافق الجانب المعماري والزخرفي المزدوج الذي تستعمله هذه القبة.

الجدول رقم 01: مقاسات القبة

الارتفاع من القاعدة إلى الأعلى	الارتفاع من الشريط الكتابي إلى الأعلى	العرض	العرض	القبة
4,6م	1,95م	3,80م	3,90م	القبة المخرمة

المصدر: من إعداد الباحثين.

تتركز القبة المخرمة على إطار مربع بزخرفة كتابية في غاية الدقة والروعة والجمال، ونفذت هاته الكتابة بالخط الكوفي المورق، وتحتوي الكتابة على تحويلات حلزونية هذا نصها: "بسم

الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم هذا مما امر بعمله الأمير أيده الله وأعز نصره وأدام دولته وكان عمله على يد الفقيه الأجل القاضي الأوصل أبي الحسن علي بن عبد الرحمن ابن علي أدام الله عزهم ، فتم في شهر جمادى الأخيرة عام ثلاثين وخمسمائة." ، وقد كتبت بأسلوب أندلسي جميل ويلاحظ أن اسم الأمير قد مسح من الكتابة كما أشرنا إليه سابقاً.

الصورة رقم 02: القبة المخرمة من الداخل

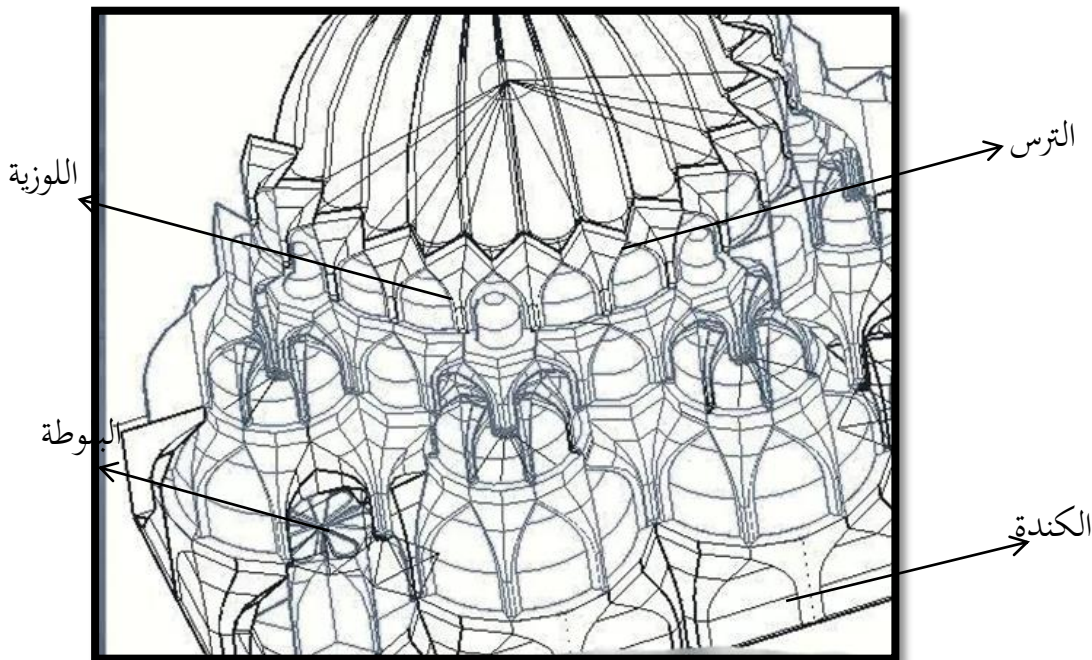


المصدر: من تصوير الباحثين.

تنطلق المقرنصات* من مستوى مئمن الزوايا لتصل إلى قبيبة فوقانية لها ستة عشر أخذودا، إنها تشبه كثيرا قباب معالم غرناطة واشبيليا لكنها لم تدرج المستطيل المثنى على غرار معظم هذه الأخيرة وفقا الشكل التالي:

القباب بالمنشآت الدينية الإسلامية خلال الفترة الوسيطة: قبة الجامع الكبير بلمسان

الشكل رقم 05: رسم ثلاثي الأبعاد يمثل الأشكال الهندسية داخل القبة المقرنصة.



المصدر: من إعداد المهندس هادف سالم - بتحقيق الباحثين -

خاتمة:

بدأت تفد التأثيرات على المغرب الأوسط مقابل تفاعل المرابطين لرقعة الحياة الأندلسية وانغماسهم في الترف الذي اتسمت به الأندلس منذ القرن الخامس الهجري، فأخذ التيار الحضاري الإسباني المغربي يتسرب إلى الجزائر ولاسيما تلمسان حيث تربع المرابطون على بناء هذه الأساليب للفن الأندلسي الجميل.

ساد الطراز المغربي الإسلامي في الأندلس قبل أن يصل إلى أوج ازدهاره خلال القرن التاسع الهجري، ومن أبرز خصائصه استعمال المقرنصات واستخدام الجص المحفور واللون الذهبي في التزيين في القباب، ويظهر لنا هذا الفن في القبة المخرومة لمسجد تلمسان المقتبسة

فكرتها من قباب جامع قرطبة، إلا أنّ البناء في عهد المرابطين لم يبق على فكرتها المعمارية البحتة المتمثلة في العقود الحجرية المتينة، بل إنه استطاع أن يطورها لتؤدي الغرض المعماري والفني في الوقت نفسه.

استعمل المهندس المقرنصات في تحويل المربع إلى مثنى وهو الشيء الذي تفتقده القباب المضلعة في جامع قرطبة كما أن طراز الضلوع الرفيعة والتي تحتوي بينها مساحات زخرفية مخزومة تدل على مدى النضج الفني الذي بلغه المرابطون، ومدى درجة التحول الحضاري الذي عرفوه في عهد علي بن تاشفين، وإن كنا نرجح أن يكون بناء هذه القبة قد تم على يد بعض الذين استقدمهم هذا الأخير من الأندلس.

لقد اتجه الفنان المسلم إلى استخدام أساليب وأشكال فنية ذات طابع خاص تتلاءم وروح العقيدة الدينية التي فرضتها الحضارة الإسلامية، لذا جسدت الصورة المتميزة لمنجزات الحضارة الإسلامية طرازاً فنياً تعددت فيه النماذج والأشكال والزخارف بأنواعها من قباب وعقود وأعمدة وغيرها، حتى أصبح المتأمل يشعر تلقائياً بأنسائها وهويتها عبر فيض روحها الداخلية وثرأ شكلها الخارجي بمبدأ تأسيس علاقة بين الإنسان والطبيعة بنظرة جمالية، ولقد أجاد البناء المعماري في تنوع أشكال بناء القباب وكذا مهارته في تقنيات وهندسة وزخرفة نماذج وأنواع مختلفة.

الهوامش:

¹ الحميري بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: حسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975، ص 135

² يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بن عبد الواد، تح: عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائر، ج 01، ص 84.

* ندرومة: مدينة واقعة في الشمال الغربي من تلمسان تبعد عنها بنحو 60 كلم، وقد جاء في وصف الحميري لها بأنها مدينة حسنة كثيرة الزرع والفواكه وبينها وبين البحر عشرة أميال. للمزيد: أنظر الحميري بن عبد المنعم، المصدر السابق، ص 576.

³ مبارك بوطان، العماير الدينية في المغرب الأوسط، مؤسسة كنوز العلمية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 88.

⁴ أحمد فكري، المدخل: مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، القاهرة، 1961، ص 291.

⁵ نفسه، ص 249.

** هو أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين، ولد سنة 407هـ/1116م، تولى إمارة المرابطين بعد وفاة أبيه سنة 500هـ/1106م، انظر: بن أبي زرع، الأنيس المغرب بروض القرطاس وتاريخ مدينة فاس، الرباط، 1936م، ص 78.

6

⁷ Barges L, Tlemcen Capital du Royaume de ce Nom, paris, 1888, p435.

⁸ صالح بن قرية، العمارة الدينية في عصر المرابطين، مجلة سيرتا، مج 01، ع 04، 1980، ص 35.

⁹ نفسه، ص 37.

¹⁰ ابن رمضان شائوش محمد، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995، ص 65.

¹¹ صالح بن قرية، المرجع السابق ص 42.

¹² ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 91.

¹³ صالح بن قرية، المرجع السابق، ص 37.

* تاغرارت: بناها يوسف بن تاشفين في حدود اثنين وستين وأربعمئة بمكان محله ولذلك سميت باسم تاغرارت، فإنه اسم المحلة بلسان زناتة، أنظر: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 91.

¹⁴ ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد المنعم خليل إبراهيم وعامر أحمد حيدر، ط 04، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985، مج 01، ص 289.

¹⁵ أحمد فكري، مسجد القيروان، ط 02، مطبعة المعارف، القاهرة، 1994، ص 89.

¹⁶ سيد بسيوني، فن العمارة، ط02، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، 2015، ص-ص 146-147.

¹⁷ نفسه، ص 146.

¹⁸ قاسم جليل الحسني، المنظومة الزخرفية في الفنون الإسلامية: دراسة في مفهوم الصيرورة، الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، 2016، ص75.

¹⁹ جورج مارسلي، الفن الإسلامي، تر: عفيف بھنسي، منشورات الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، 1968، ص112.

²⁰ أحمد فكري، المرجع السابق، ص102.

* الرصف هو ضم الحجارة ببعضها البعض، جعل لها أرضفة تصافت واستوت وانتظمت بلطها بالحجارة المنحوتة.

** القشاني خزف صيني ملون، للمزيد انظر: ابن منظور، المصدر السابق، ص112.

²¹ قاسم جليل الحسني، المرجع السابق، ص-ص 75-76.

²² سيد بسيوني، المرجع السابق، ص-ص 147-148.

²³ عفيف بھنسي، المرجع السابق، ص56.

²⁴ سيد بسيوني، المرجع السابق، ص149.

²⁵ بلحاج طرشاوي، العمارة الإسلامية أصولها الفكرية ودلالاتها الثقافية والبيئية، النشر الجامعي للطباعة والنشر والتوزيع، تلمسان، ص68.

²⁶ سيد بسيوني، المرجع السابق، ص-ص 148-149.

²⁷ حسن محمود نويصر، الآثار الإسلامية، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1997، ص87.

²⁸ ابن منظور، المرجع السابق، ص220.

* المقرنصة: هو عنصر من العمارة الإسلامية ذو أشكال متعددة متكاثرة ومتزاحمة بصفوف مدروسة التوزيع والتركيب وكأنها بيوت النحل أو أقراص الشهد تتلاصق خلاياها تجمع بين عناصرها خطوط وكتل متناغمة متناهية الدقة، تغطي المقرنصات المجالات المقعرة والسطوح حادة الاطراف في الأركان بين السقف والجدران.

قائمة المراجع والمصادر:

1. Barges L, Tlemcen Capital du Royaume de ce Nom، paris، 1888.
2. ابن رمضان شاوش محمد، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995.
3. ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد المنعم خليل إبراهيم وعامر أحمد حيدر، ط04، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985.
4. أحمد فكري، المدخل: مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، القاهرة، 1961.
5. أحمد فكري، مسجد القيروان، ط02، مطبعة المعارف، القاهرة، 1994.
6. بلحاج طرشاوي، العمارة الإسلامية أصولها الفكرية ودلالاتها الثقافية والبيئية، النشر الجامعي للطباعة والنشر والتوزيع، تلمسان.
7. بن أبي زرع، الأنيس المغرب بروض القرطاس وتاريخ مدينة فاس، الرباط، 1936م.
8. جورج مارسلي، الفن الإسلامي، تر: عفيف بهنسي، منشورات الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، 1968.
9. حسن محمود نويصر، الآثار الإسلامية، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1997.
10. الحميري بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: حسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975.
11. سيد بسيوني، فن العمارة، ط02، دار البازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، 2015.
12. صالح بن قربة، العمارة الدينية في عصر المرابطين، مجلة سيرتا، مج01، ع04، 1980.
13. قاسم جليل الحسني، المنظومة الزخرفية في الفنون الإسلامية: دراسة في مفهوم الصبورة، الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، 2016.
14. مبارك بوطان، العماثر الدينية في المغرب الأوسط، مؤسسة كنوز العلمية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.
15. يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك بن عبد الواد، تح: عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائرية.